وكان الليفونيون يجهلون الجهة التي يتوجه اليها جيش إيفـان الكبير . وكان يفترض أنه سيبدأ حصارا جديدا على ريفال ، ولكن الجيش أضاع أشهرا عديدة بدون عمل وهو يقوم بالمناورات والتمرينات والاستعراضات العسكرية . وقد قضى القيصر وابنه وقتا في بادىء الأمر وهما يتسليان في نوفغورود وبسكوف ، ولم يبدأ التقـدم إلا في الخامس والعشرين من تموز يوليو وكان متجهـا الى ليفونيا الجنوبية التي كانت مقاطعـة يديرها البولونيون بسلام . ولـم تكن الهدنة قد انقضى أجلها عندما أصبح إيفان في حرب مفتوحة مع الملك الجديد . وتمكن الروس بشكل لا يقهر من أن يكنسوا أمامهم كل شيء مستولين على المدينة بعد الأخرى دون أن يلقوا إلا مقاومة ضعيفة . وعندما كانت توجد مقاومة كان القيصـر بعد الفتح يسلم المدينـة للسلب والنهب . وكانت الحملة موفقة في البداية ، ولكن إيفان ما لبث أن فوجىء بالتقدم العسكري البطولي لحليفه ماغنوس الذي ـ باعتباره ملكا على ليفونيا ـ أصدر للقيصر أمرا باحترام حقوق رعاياه . وقد قدم ماغنوس قائمـة بالمدن التي اعترفت به ملكـا بما في ذلك دورپات DORPAT ، دون أن يكون لديه شعور بالدعابة ، ولم يكن مثل هذا الشعور موجودا لـدى إيفان أيضا فوضـع مبعوثي ماغنوس تحت السياط . وأكثر من ذلك انه استولى على اول مدينة وردت في قائمة المدن الموالية وقتل من فيها من جنود ماغنوس بحد السيف . وبعد أن أعلن قائمة بأسماء الرعايا الموالين لماغنوس فيها أرسل كل سكانها رجالا ونساء وأطفالا الى الأسر. كان هذا هو مصير كوكنهوسن . وبينما كان القيصر يتجول في شـوارع هذه المدينة المنكوبة دخل في نقاش مع واحد من الكهنة البروتستانت. كانت تلك هي السمة المميزة لإيفان . ففي وسط الدخان والخراب كان مستعداً دائمـا للنقـاش الديني بل إنه كان يسعى إليـه . ولكن هذا الحديث لم ينته بشكل معتدل . فعندما قام الكاهن يمتدح خصال بطله لوثر ويقرنه بكل وقاحة بالقديس بطرس طفح الكيل مع إيفان فرفـع عصاه المدببة الراس بالفولاذ وغرسـها في جسد الكاهن وهو يصرخ : « اذهب إذن مع لوثرك هذا الى الشيطان » ثم تابع طريقه .